رِثَاءُ الآثَارِ الطُّولُونِيَّةِ الزَّائِلَةِ

دراسة تحليلية نقدية

دكتور
طه عبد الحميد زايد

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

البحث عن الأدب العربى فى بيئة عربية قديمة كبيئة الدولة الطولونية التى امتدت من عام ٢٠٤ هـ حتي عام ٢٩٢ هـ الموافق (٨٦٩ م - ٩٠٤م) ليس هيناً يسيراً؛ بل هو أمر عسير لأسباب كثيرة منها :

أن أكثر البحوث الأدبية - فى هذا العصر - اتجه إلى العصر الحديث .

وأن كثيراً من معالم هذه الحقبة يحفه الغموض، وكذلك آثارها العلمية ونتاجها الأدبى ، ودواوين شعرائها لم تنشر نشراً واعياً، وكثيراً من شعر شعرائها مبثوث فى ثنايا الكتب .

كما أن كثيراً من نصوص الأدب فى هذه الفترة مايزال مخطوطاً لم تمتد إليه يد المحققين لتزيل عنه الصعاب التى تفسد قراءته، وتقلل قيمة الانتفاع به .

من أجل هذا أقدمت على هذا العمل - دراسة شعر الدولة الطولونية فى رثاء الآثار الزائلة، غير حافل بما سيكلفنى من عناء ، ويجشمنى من مشقة؛ بل من أجل ذلك أحببت هذه الدراسة، لاتدفعنى عن غايتى هذه عقبة مهما تكن شديدة العسر والالتواء .

وشعراء هذه الدولة من الكثرة بحيث يصعب الحديث عنهم أجمعين، وإن كان بعضهم صادقاً فى رثائه ، وفيا لدوته، وسنقصر

الحديث عن هذا الصنف من الشعراء، موضحين أهمية هذه الآثار، وهى وإن كان الغرض منها تمتع أصحابها، فقد كانت مادة لخيال الشعراء، ومجالاً لتصوراتهم، ومراماً. ومغذى لتأملاتهم، بصورها تعمر مخيلاتهم، وبمجالسها تنبعث شاعريتهم، كل هذا كان كتاب هذه الدولة الذى قرأه شعراؤها وأدباؤها، وجالوا بنظراتهم فى صفحاته، فكان مادتهم ومثالهم فيما يرسمون، وقد أكثر الشعراء من وصف محاسن هذه الآثار أيام كانت قائمة، كما ذرفوا الدمع عليها مدراراً عند زوالها، والقضاء على أصحابها، فخفقت لها قلوبهم، وتألمت نفوسهم، وظهر ذلك واضحاً على ألسنتهم.

ولن ندعى أن هذه الدولة كان للأدب فيها رواج عظيم، وإنما سيتضح لنا ذلك من خلال هذه الدراسة.

فقائد هذه الدولة كان محباً للأدب، مشجعاً للشعراء، مقرباً لهم، مجزلاً لهم الهبات، مما أغرى البحترى بالانضام إليه، وتخصيصه بمدائح خاصة لايشاركه فيها أحد.

وقد كانت مصر فى عهد (أحمد بن طولون) تنافس بغداد ذات المكانة العلمية العالية، فعملت على تشجيع الأدباء والشعراء، واتخذت منهما أبواقاً لإذاعة محامدها، وإظهار فخامتها، وبث هيبتها فى النفوس، مما جعل لزوالها أثراً بالغاً فى النفوس، فرثاها الشعراد بقصائد كثيرة.

وسوف نركز الحديث عن الشعر الذى يتصل بأثر زائل حزن الناس لزواله بعد أن استمتعوا به.

كـمـا أننا سنشـيـر بشئ من الإيجـاز إلى تاريخ هذه الدولة والمنشآت والآثار بها ، وكذلك الآثار الزائلة بصفة عامة، ثم نحاول التركيز على رثاء الآثار الطولونية الزائلة .

غير مدعين الإحاطة والشمول ، وإنما هى محاولة للوصول إلى إزالة الغبار المتراكم على هذه الكمية الهائلة من الشعر فى رثاء الآثار الطولونية الزائلة ، داعين الله عز وجل أن ننتفع بها ، وأن ينفع بها سوانا .

والله ولى التوفيق

دكتور

طه عبد الحميد زيد

لمحة تاريخية :

احتلت الأسرة الطولونية مكانة بارزة فى التاريخ الإسلامى فى الميدانين السياسى والأدبى ، فقد أنشأت إمارة استمرت قرابة خمسين عاماً من عام (٢٥٤ هـ - إلى ٢٩٢ هـ) وهى فترة ليست بالطويلة في عمر الدول وسيرة التاريخ، ولكن عمر الدول لايقاس بطول السنين وقصرها، وإنما يقاس بما لها من آثار، وماأضافته إلى التاريخ من أعمال فى كل الميادين .

وإذا تتبعنا تاريخ الدولة الطولونية وجدناها حافلة بالأحداث الجسيمة، والأعمال الباهرة، والآثارالأدبية الخالدة ، مما جعل لمدة قيامها، وأيام سلطانها، أهمية رغم قصرها ، غنية رغم بساطتها، خصيبة في نتاجها الأدبى .

فقد احتلت مكانتها بجدارة كاملة، وظهرت ملامحها العربية الأصيلة فيما قامت به من أعمال فى مختلف ألوان النشاط .

فكانت ذات نشاط حربى ، إذ استطاعت أن تعيد إلى الدولة الإسلامية سيادتها على حدودها .

وقد كان لقائد هذه الدولة (أحمد بن طولون) مكانة مرموقة، ومنزلة عالية، بين الناس، وقوة وشجاعة مكنته من تطهير البلاد من المناوئين له، واحتال بذكائه وحنكته حتى أصبح أمر خراجها بيده، فقويت شوكته، وعظم أمره فى تلك البلاد ، وأصبحت مصر فى عهده فى أمن ورخاء، وسياده واستقرار .

ولم يكن نشاط الدولة الطولونية نشاطاً سياسياً واجتماعياً واقتصاديا فحسب؛ بل كان نشاطها الأدبى رائعاً كذلك، وليس أدل على ذلك مما شهدته البلاد من حضارة وتقدم فى هذه الفترة ظهر أثرها على ألسنة الشعراء ، فهذه مدينة القطائع التى أنشأها (أحمد ابن طولون) وما أقامه بها من مبان فخمة، وهذا مسجده الذى لايزال ماثلاً إلى اليوم آية فى فن العمارة؛ فقد جعل ابن خمارويه فى بنائه عنبراً لتفوح رائحته على المصلين، وعلق فيه الفتايل المحكمة بسلاسل النحاس المفرغة الحسان الطوال، وكان فى وسط صحفنه قبة مشبكة من جميع نواحيها ، وهى مذهبة على عشرة عمد رخام، وجعل تحت القبة قطعة رخام سعتها أربعة أزرع، وفى وسطها فوارة تفور بالماء[1].

و(أحمد بن طولون) عاهل هذه الدولة تركى من أبناء هؤلاء الأتراك الذين كان الولاه يهادون بهم الخلفاء، ثم استكثر منهم الخليفة المعتصم بالله، ليكونوا أعوانه ومساندیه، وكان أبوه طالون من موالى نوح بن أسد السامانى عامل بخارى وخراسان، أهداه فى جملة من المماليك إلى المأمون سنة مائتين من الهجرة، فرقاه المأمون حتى صار من جملة الأمراء[2] .

---

(١) انظر - خطط المقريزى جـ٢ ص٢٦٨ .

(٢) حسن المحاضر جـ٢ ص١٢ .

وولد له (أحمد) فنشأه تنشئة دينية ظهر أثرها عليه طيلة حياته فحفظ القرآن الكريم وأتقنه، وكان من أطيب الناس صوتاً به، مع كثرة الدرس، وطلب العلم، وتفقه على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة، ولما ترعرع تزوج ابنة عمه (خاتون) فولدت له العباس[١]، وكان يكنى به .

ونشأ (أحمد بن طولون) فى الفقه والصلاح والدين والجود حتى صار له في الدنيا الذكر الجميل، والصيت الحسن .

وكان شديد الإزراء على الترك وأولادهم لما يرتكبونه فى أمر الخلفاء، غير راض بذلك، ويستقل عقولهم، ويقول : (حرمة الدين عندهم مهتوكه)[٢] .

وكان المستعين يحب (أحمد بن طولون) ويحسن إليه، ووهب له جارية اسمها (مياس) فولت له ابنه (خماوريه)، ولما تنكر الأتراك للمستعين وخلعوه، وأحدروه إلى واسط قالوا له : من تختار أن يكون فى صلحبتك ؟ فقال: (أحمد بن طولون)، فبعثوه معه، فأحسن صحبته ثم كتب الأتراك إلى (أحمد) أقتل (المستعين) ونوليك واسطاً، فكتب إليهم، لأأرانى الله قتلت خليفة بايعت له أبداً، فبعثوا سعيداً الحاجب فقتل (المستعين) ثم رجع أحمد إلى (سر من رأى) بعدما قتل (المستعين) وأقام بها. فزاد محله عند الأتراك فولوه

---

(١) النجوم الزاهرة جـ٣ ص٤.

(٢) المرجع السابق .

مصر نيابة عن أميرها سنة أربع وخمس ومائتين من الهجرة فقال حين دخلها : غاية ماوعدت به فى قتل (المستعين) واسط فتركت ذلك لله تعالى فعوضنى ولاية مصر والشام ، فلما قتل والى مصر الأتراك فى أيام الخليفة المهتدى صار (أحمد بن طولون) مستقلاً بها فى أيام المعتمد (١)

فبدأ (أحمد بن طولون) يسكن العسكر على عادة أمراء مصر من قبله ، فبنى القطائع وكان موضعها من قبة الهواء التى صار مكانها الآن - قلعة الجبل - إلى جامع ابن طولون، وهو طول القطائع، وأما عرضها فكان من أول الرميلة من تحت القلعة إلى الموضع الذى يعرف الآن باسم (زين العابدين) (٢) .

وكانت مساحة القطائع ميلاً فى ميل، وقبة الهواء كانت فى السطح الذى عليه قلعة الجبل، وتحت قبة الهواء بنى قصره (٣) .

وعمرت القطائع عمارة حسنة، وتفرقت فيها السكك والأزمة ، وأقيمت فيها المساجد والطواحين والحمامات والأفران والحوانيت والشوارع (٤) .

---

(١) النجوم الزاهرة حـ٣ ص٧ .

(٢) نفسه ص١٤ .

(٣) نفسه ص١٧ .

(٤) نفسه ص١٨ .

ثم بنى الجامع على جبل يشكر خارج القاهرة، وأنفق عليه أموالاً طائلة . وقال (أحمد الكاتب) : أنفق (أحمد بن طولون) على بناء الجامع مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار[١] .

و(ابن طولون) كان كثير البر كثير الصدقة، حتى قيل إنه كان يتصدق كل يوم بمآت الدنانير وقد قال له وكيله فى الصدقات: ربما امتدت إلى الكف المطوقة والمعصم فيه السوار، والكم الناعم، أفأمنع هذه الوظيفة ؟ فقال له : ويحك ، هؤلاء المستورون الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف؛ احذر أن ترد اليد التى تمتد إليك)[٢] .

واستمر ولياً على مصر حتى مرض سنة سبعين ومائتين من الهجرة أى أنه حكمها ستة عشر عاماً، ثم اعتل واستدعى الأطباء لعلاجه، وبلغ من حب الناس له، أنهم لما علموا بمرضه ، خرج المسلمون بالمصاحف، واليهود بالتوراة، والنصارى بالإنجيل، والمعلمون بالصبيان، إلى الصحراء ودعوا له، وأقام المسلمون بالمسجد يختمون القرآن كل ليلة طلباً لشفائه .

وقد صار لمصر خاصة فى عهد هذه الدولة شأن كبير، فقد كثرت عمارتها ، وشيدت أبنيتها، وارتفعت قصورها وأرضوا الخليفة ببعض المال بما سمح لهم أن يتصرفوا، أو تنطلق أيديهم فى سائره وهو

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه .

كثير، فكان منهم البذخ والسخاء والترفيه على الناس، والمنافسة الشديدة لدار الخلافة فى كل مظهر من مظاهر العظمة[١].

ومن هنا نشأ في هذه الدولة عصر جديد للأدب، إذ الأدب مرآة الحياة، ونبض أهلها ، فشجع هذا الأدباء عامة، والشعراء خاصة فأثار مشاعرهم ، وحرك كوامن التجربة فى نفوسهم، فصوروا لنا هذا البذخ ، وتلك الآثار تصويراً جعل الناس يتعلقون بها، ويحبونها بل يغرمون بها، ويعشقون البقاء فيها، مؤثرين الحياة بها عن غيرها، مما جعلهم يتألمون عند زوالها، ويبكون لاندثارها ، كما سيظهر عند دراستنا لشعر شعراء هذه الدولة فى رثائهم لهذه الآثار الزائلة .

---

(١) انظر - صبح الأعشى حـ٣ ص١٧ ومابعدها .

رثاء الآثار:

لقد نعى لنا القرآن الكريم الكثير من الأمم والحضارات وحكم عليها بالزوال، وأنزل بها أشد العقاب، فأصبحت أثرا بعد عين وباتت القصور والمدائن خاوية على عروشها، كل مظاهر الترف والعزة والقوة أصبحت خالية معطلة منهم بسبب ظلمهم وفسادهم فى الأرض .

فهذه حضارة سبأ بنيت على النعيم والرعاية من الله تعالى، كان فى زوالها عبرة لمن أراد أن يعتبر ، واية لمن كان له قلب واع، يصور لنا القرآن ذلك فى قوله : **(لقد كان لسبأ فى مسكنهم اية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلنهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل ذلك جزينهم بما كفروا وهل نجزى إلا الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التى بركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً ءامنين فقالوا ربنا بعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلنهم أحاديث ومزقنهم كل ممزق إن فى ذلك لآيت لكل صبار شكور)** [1] .

فالأرض ممتدة عن اليمين وعن الشمال، وجنات تنبت أطيب الثمار، وأشهى الفواكه، وأهلها يعيشون فى جميع ألوان الخير والطيبات نعم وافرة، ورزق كريم، وخير عميم من الله عز وجل، خير

---

(١) الآيات من ١٥ - ١٩ من سورة سبأ .

مـابعده خـير، بلدة طيبـة ورب غفـور، وكـانوا فى أول أمرهم يشكرون هذه النعم فـأكرمـهم الله بخـيراته والتـجـاوز عن هفـواتهم، لكنهم لم يلبثـوا أن تنكورا لهـذه النعم، وأعـرضـوا عن شكر الله، واسـتـغلقت قلوبهم وطمست بصائرهم فبطروا وكفروا ، فأرسل الله عليـهم عقاباً لهم. سيل العرم - فأهلك ودمر واستحالت تلك الجنات أرضاً قاحلة نبـاتهـا الشـوك والخـمط وشئ من السـدر، لايكاد يقـيم أوداً ، ولم يرتدعـوا بل ظلت نفـوسـهم على ظلمـهـا وظلامـهـا فطلبـوا من ربهم أن يبـاعـد بينهم وبين أسـفـارهم، وكـانت بينهم وبين القـرى المبـاركـة فى الشـام قرى ظاهرة قـريبـة من بعـضـهـا ، لايكاد المسـافـر يشعـر بمشـقـة السـفـر من قـريـة إلى أخـرى، كـمـا أنه لايحـتـاج إلى حـمل زاد أبداً ، ولكنهم بطلبهم المباعدة بين أسفارهم، كأنهم طلبوا العذاب بأنفسهم فكانت نهـايتـهم أن تفـرقـوا وأصبـحـوا مـضـرب المثل (تفـرقـوا أيدى سبـأ). وتكون الكارثة أشد عندمـا يكون الإنسـان نفـسـه هو الهـادم لهذه النعم والمزيل لتلك الآثار، وتكون الفجيعة أشد، والمصاب أليم إذا كان الهادم عدو يريد إزالة معالم الحضارة من الوجود .

ورثـاء الآثار الزائلة عند الطولونيين ليس جـديداً، وإنما سـبق الشـعـراء القـدامى فى رثاء آثارهم الزائلة، وبكوا المدن والقـصـور منذ العصر الجاهلى ، ومن ذلك قول الأسود بن يعفر النهشلى :

نام الخلى ومـاأحس رقـادى والهـم محتضر لدى وسـادى
من غير ماسقم ولكن شفنى هم أراه قد أصاب فـؤادى[1]

---

(١) الموازنة بين الشعراء - زكى مبارك ص١٣٥ .

ثم يقول فى بكاء من ساد من الذاهبين :

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إياد
أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذى الشرفات من سنداد
أرض تخيرها لطيب مقبلها كعب بن مامه وابن أم داود
جرحت الرياح على مكان ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد[1]

ونحا هذا المنحى متمم بن نويره فى عينيته التى يقول فيها :

ولقد علمت ولامحالة أننى للحادثات فهل ترينى أجزع
أفنين عاداً ثم آل محرق فتركنهم بدداً وماقد جمعوا[2]

وقد وقف البحترى عند رسوم إيوان كسرى ، وتبعه عند أطلال الحمراء معارضاً إياه .

وإيوان كسرى الذى بكاه البحترى كان آية فى العظمة والفخار، واشتهرت قصيدة البحترى فيه، وذاع صيتها وهى التى بدأها بقوله :

صنت نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن جدا كل جبس[3]

أما قصر الحمراء الذى بكاه شوقى فهو من قصور الأندلس، والأندلس هى الفردوس المفقود الذى يبكيه المسلمون حتى اليوم ، وسيظلون دائماً يبكون.[4]

---

(١) المرجع السابق ص١٣٦ .
(٢) المرجع السابق ص١٣٦ .
(٣) ديوان البحترى حـ٢ ص١١٥٢ القصيدة رقم ٤٧٠ .
(٤) الموازنة بين الشعراء لزكى مبارك بها فصل فى الموازنة بين البحترى وشوقى ص١٣٨ ومابعدها .

وفيها يقول :

اختلاف النهار والليل ينسى اذكرا لى الصبا وأيام أنسى
وصفالى ملاوة من شبـاب صورت من تصورات ومس[١]

والرثاء من الأغراض البارزة فى شعرنا العربى، بل لقد احتل مساحة شاسعة فى ديوان الشعرالعربى منذ العصر الجاهلى ، وسيظل يحتفظ بهذه المساحة مابقى الإنسان والأوطان، إذ طبيعة العربى عطوفة حنانة والهة متأثرة، حتى رأينا بعض الشعراء لايتوقف رثاؤهم على إنسان قريب أو بعيد، بل تعدى ذلك إلى رثاء الحيوان والجماد .

وإن كان أغلب مظاهر الشعر مشترك بين عصور اللغة العربية فى كل مكان ، ولكن من بينها واحداً وهو رثاء الآثار يرى جديداً بين مظاهر الشعر العربى فى الشرق والغرب .

ذلك بأن هذا الغرض من الشعر لم يكثر فى قطر من أقطار العربية إلا فى الدولة الطولونية، وبلاد الأندلس .

ولابد من تفهم الأسباب التى جعلته بين الوضوح فى هذين الموضعين .

ذلك أن النكبة التى أصيبت بها دولة آل طولون كانت شديدة الوقع، بينة الأثر فى نفوس أهل البلاد ، لفظاعتها من ناحية،

---

(١) الشوقيات - أحمد شوقى حـ٢ ص٤٤ .

ولجنايتها من ناحية أخرى على اثار كانت حبيبة إلى النفوس، مستولية على مشاعر القوم ، موجبة لفخرهم بموطنهم واعتزازهم بمنشأتها ، وهيامهم بآثارها التى أنفقوا عليها الكثير، مما جعل فقدهم لها يعد فاجعة كبرى، وكارثة عظمى تثير مشاعر الشعراء، تفجر ينابيع القول من أعماقهم، وتهيج أحاسيسهم ونبض قلوبهم ، وهم عرق الأمة النابض، وترجمان مشاعرهم وعواطفهم، فبكوا آثارهم فى أواخر القرن الثالث الهجرى ورثوا الأوطان والدول حين سقطت مهيضة الجناح بعد أن سعد فيها الأهل والأحباب ، واستمتعوا بما لها من مآثر ومافيها من جمال، كما نراهم يبكون ويذرفون الدمع مدراراً كأنها لاتريد أن تجف، وتسيل أشعارهم وكلماتهم محزونة مكلومة وكأنها تخرج من جروح لاترقأ فى القلوب والأفئدة من هول المصاب ، وفجيعة الحدث .

ولاعجب أن نرى عاطفة الشاعر تلتهب وتبكى وتبكى، وتحزن، وتأسى وتؤسى، كل المواطنين الذين أصابتهم أحزان زوال آثار دولهم، واندثار معالم أوطانهم .

فكانت كل هذه الآثار مثاراً لشاعرية الشعراء، ومبعثاً لخيالاتهم، فقد أكثر الشعراء من وصف محاسن هذه الاثار أيام كانت قائمة، كما ذرفوا عليها الدمع مدراراً بعد تخربها على أثر انقضاء دولة أصحابها كما سنوضحه وقد ساعد على ظهور هذا النشاط الأدبى، وجود طائفة من الأدباء والشعراء أخلصوا لدولتهم ، وصدقوا فى إظهار محاسنها، واشتهروا بالوفاء لها ولقائدها ، حتى بعد

موته، وهذا النوع من الشعراء قليل، وقد ذاع صيتهم، واشتهروا فى عالم الشعر لما لشعرهم من قوة فى الأداء وصدق فى الشعور، مما أثر فى قلوب الناس ، فالتفوا حولهم وتناقلوا أشعارهم. فى مقدمة هؤلاء جميعاً العباس بن أحمد بن طولون، فقد كان شاعراً مجيداً له شعر كثير منه قوله :

لله درى إذ أعدو على فرسى إلى الهياج ونار الحرب تستعر
وفى يدى صارم أفرى الرءوس به فى حيرة الموت لايبقى ولايذر
إن كنت سائله عنى وعن خبرى فهأنا الليث والصمصامة الذكر
من آل طولون أصلى إن سألت فما فوقى لفتخر فى الجود مفتخر
لو كنت شاهده كرى ببلدة إذ بالسيف أضرب والهامات تبتدر
إذا لعاينت منى ماتنادره عنى الأحاديث والأبناء والخبر[1]

كما ساعد على ظهور هذا النشاط الأدبى كذلك جود الخلفاء وسخاؤهم فقد اجتذب ابن طولون بعطائه وجوده الوليد بن عبيد البحترى ولاشك أن العطاء الذى يرضى (البحترى) صاحب الصيت الذائع والشهرة التى عمت الآفاق - بعد ماذاق جوائز الخلفاء. هو عطاء كثير وجود سخى، لذلك خص البحترى ابن طولون بقصائد خاصة لم يخلطها بغيرها .

---

(١) الأدب العربى فى مصر ص١٢٨ .

فقد مدحه بقصيدة بلغ عدد أبياتها ستة وثلاثين بيتاً من بحر الطويل قال فيها :

قليل لها أنى بها مغرم صب وأن لم يقارف غير وجد بها القلب
بذلت الرضا حتى تصرم سخطها وللمتجنى بعد إرضائه عتب(١)

وقال يمدحه أيضاً :

وعند أبى العباس لو كان دانيا نواحى الغناء السهل والكنف الرحب
وكانت بلاء نيتى عنه والغنـى غنى الدهر أدنى ماينول أو يحهـو
وذو أهب للحادثـات بمثلهـا يزال الردى عنا ويستدفع الكـرب
سبوف لها فى عمر كل عدى ردى وخيل لها فى دار كل عدى نهب(٢)

وكذلك كان حال البحترى مع ابنه (خمارويه) فقد مدحه بقصيدة بلغ عدد أبياتها ثمانية عشر بيتاً على بحر الطويل قال فيها :

تذكر محزوناً؛ وأنى له الذكرى وفاضت بغزر الدمع مقلته العهرى
فؤاد هو الحران من لاعج الجوى إلى كبدجم بتاريخها حـرى(٣)

---

(١) ديوان البحترى حـ١ ص١٢٢ .

(٢) ديوان البحترى حـ٢ ص٧٧ .

(٣) ديوان البحترى حـ١ ص٥٨ .

وقال يمدحه أيضاً:

وقد رأيت جيوش النصر منزلة على جيوش أبى الجيش بن طولونا
يوم الثنية[١] إذ ثنى بكرته فى النفع خمسين ألفاً أو يزيدونا
مظفر لم يزل يلقى بطلعته كواكب السعد والخيل الميامينا[٢]

وشعراء هذه الدولة الذين مدحوا (أحمد بن طولون) وأبناءه من بعده كثيرون منهم (الجمل الأكبر) و (الناشئ الأكبر) و(إسماعيل ابن أبي هاشم) و(أحمد بن يعقوب) و (سعيد القاص) و (أحمد ابن طشويه) و (أحمد بن إسحاق) وغيرهم كثير .

مواقف الشعراء من الدولة الطولونية:

ولما كنت أرى أن الأدب المؤثر يكون صدى للحياة العامة، وانعكاسا للحياة الخاصة، وقد كان الأدب فى الدولة الطولونية كذلك، فإني أحس أن الشعراء فى مدحهم لأمراء هذه الدولة كانوا مخلصين أوفياء، أظهروا مالهم من فضل، وماحققوه من رخاء، وما أشاعوه من أمن واستقرار .

---

(١) الثنية - مكان فى دمشق يسمى (ثنية العقاب وكانت به الموقعة بين خمارويه و(ابى السياج) انتصر فيها (خمارويه) .

(٢) الولاة والقضاة ص٢٢٩ .

ولما مات أحمد بن طولون يوم الاثنين لثمانى عشرة خلت من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين من الهجرة) [١] ولى الأمر بعده ابنه (خمارويه) فأقبل على عمارة قصر أبيه، وزاد فيه محاسن كثيرة، وأخذ الميدان الذى كان لأبيه المجاور للجامع فجعله كله بستاناً، وزرع فيه أنواع الرياحين، وأصناف الشجر، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم وأنواع الورد، وزرع فيه الزعفران، وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص، وأجرى فيه الماء فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء، فينحدر إلى مساقى معمولة) [٢].

وجعل بين يدى هذا القصر فسقيه ملأها زئبقاً، كما أشار عليه طبيبه بقوله: (تأمر بعمل بركة من زئبق فعملها بطول خمسين ذراعاً فى خمسين ذراعاً، وملأها من الزئبق، فأنفق فى ذلك أموالاً عظيمة، وجعل فى أركان البركة سككاً من فضة، وعمل فرشاً من أدم يحشى بالريح حى ينتفخ فيحكم شده، ويلقى على تلك البركة الزئبق، ويشد الزنانير الحرير التى فى حلق الفضة، وينزل (خمارويه) فينام على هذا الفرش، فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق مادام عليه، وكانت هذه البركة من أعظم الهمم الملوكية العالية، وكان يرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب، إذا تآلف نور القمر مع نور الزئبق) [٣].

---

(١) النجوم الزاهرة حـ٣ ص٥٤.

(٢) المرجع السابق حـ٣ ص٥٤.

(٣) المرجع السابق حـ٣ ص٥٥.

ثم بنى (خمارويه) فى القصر أيضاً قبة تضاهى قبة الهواء وسماها (الدكة) وجعل لها الستر الذى يقى الحر والبرد.

ثم زالت كل هذه الآثار واندثرت وتهدمت القطائع والميدان على يد الخليفة (المكتفى بالله) العباسى الذى ولى (محمد بن سليمان) الكاتب على مصر بعد مقتل (شيبان) بن (أحمد بن طولون) يوم الخميس غرة ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائتين من الهجرة، فزالت الدولة الطولونية ، وكانت من غرر الدول) [١] .

على أن كثيراً من الشعراء لم يكونوا أوفياء للدولة الطولونية فكان منهم من صدق فى حب الدولة وقائدها وأخلص لها وتأثر بزوالها ورثاها بشعره، ومنهم من كان كارهاً لها ولقائدها غير محب ولاغيور ولامتأثر بما يحدث لها وهذا الصنف من الشعراء قد ظهر بعد زوال الدولة الطولونية وقائدها منهم (أحمد بن محمد الحبيشى) فقد قال فى الترحيب بالعهد الجديد والنعمة على القديم .

الحمد لله إقراراً بماوهباً قد لم بالأمن شعب الحق فانشعبا
الله أصدق هذا الفتح لاكذب فسرء عاقبة المثوى لمن كذبا
فتح به فتح الدنيا محمدها وفرج الظلم والإظلام والكربا
لاريب رب هياج يقتضى دعه وفى القصاص حياة تذهب الريبا

---

(١) المرجع السابق حـ٣ ص١٣٩ .

رمى الإمام به عذراء غـادرة ... لماقتض عذرتها بالسيف واقتضبا
محمد بن سليمـــان أعــزهم ... نفساً وأكرمهم فى الذاهبين أبا
سرى بأسد الشرى لو لم يروا بشراً ... أضحى عرينهموا الخطى لاالقضبا
هم القضاء على اليحموم حين أتوا ... مثل الدبى ينحون الدبة الدأبا
أيها علوت على الأيام مرتبــة ... أبا على ترى من دونها الرتبا
هارت بهارون من ذكراك بقعتــه ... وشيب الرعب شيباناً وقد رعبا
فأصبحوا لاتـرى إلا مساكنهــم ... كأنها من زمان غابر ذهبـا (١)

فالشاعر هنا ظهرت عليه علامات الفرح والسرور بزوال العهد القديم واندثار دولة ابن (طولون) وتولية (محمد الكاتب) واعتبر عصر الدولة الطولونية عصر الظلم والجور والكذب والاحتيال، فحمد الله تعالى أن زال هذا العهد وفتح الدنيا بمجيئ الوالى العباسى الجديد الذى فرج الكرب وأزاح الظلام، وأبعد الظلم.

ثم يوجه مدحه للخليفة الجديد فهو ابن الأكرمين، وسليل المجد وصاحب العزة، وقد أزال كل معالم الدولة الذاهبة وجعلها أثرا بعد عين.

والبيت الأخير إشارة إلى قصة قوم هود وماحل بهم، فكانوا يسكنون الأحقاف وقد أنعم الله عليهم وأمدهم بأنعام وبنين وجنات وعيون وكانوا يبنون بكل ريع آية يعبثون، ويتخذون مصانع لعلهم

---

(١) الولاة والقضاة ٢٥٠ .

يخلدون فلما جاءهم (هود) وأنذرهم وطلب منهم أن يعبدوا الله الواحد الأحد كفروا وعاندوا فأنزل الله عليهم الريح فأهلكتهم وجعلت القوم بعدها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاويه فهل ترى لهم من باقية فأصبحوا لايرى من آثارهم إلا مساكنهم، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا والقصة جاءت فى سورة الأحقاف الآيات من ٢١ حتى ٢٨، والفارق كبير بين قوم (هود) وقوم (طولون) فقوم (هود) كفروا بربهم، وأصروا على عبادتهم الأوثان ، وطلبوا من نبيهم دليلاً على وجود إله فكان عقابهم من الله الهلاك والدمار لأن ظلمهم واضح .

أما أبناء (طولون) فكانوا مسلمين، وقد عرفنا فيما سبق أن (أحمد بن طولون) كان يحفظ القرآن الكريم، وكان كثير البر والصدقة، وبناء المساجد لعبادة الله وحده. وفوق ذلك لم يقع بهم ماوقع لقوم (هود) ، وإنما هى تقلبات الدنيا وتعاقبها فلا بقاء لأحد، ولادوام لمنصب؛ وإنما هى الأعمار والأقدار .

وهل يجوز للشاعر أن يقارن بين قوم ظاهروا بكفرهم وشركهم وعنادهم - وقوم أظهروا إسلامهم وحبهم لله، ودللوا على ذلك ببناء المساجد ودور العبادة بل أسرفوا فى تزيينها وإظهارها فى أجمل صورة كما فعل (خمارويه) بن (أحمد بن طولون) إذ جعل بمسجد أبيه عنبراً تفوح منه رائحة المسك على المصلين . ويواصل الشاعر هجاءه للدولة الطولونية فى قصيدة أخرى .

يخاطب فيها القائد العباسى (الحسين بن أحمد الماذرائى) حين أخذ فى هدم الآثار الطولونية وإزالة معالمها - قال الشاعر مرحباً به مهنأ مصر :

هنيئاً لمصر قد فتحت رتاجها وقلدت ماقلدته بتحكم
ماالفتح إلا فتح رأيك لاالذى تجمع يوم الجمع من كل معلم
وكنت وشيبان غداة لقيته كموسى وفرعون غداة المعظم
كفيت الإمام المكتفي ماينوبه ولم يك يرجوه بكل مرجم
ومازلت ترمى آل طولون قبلها وقد خالفوا السلطان منك بصيلم[1]

وهنا نرى الفرحة ظاهرة على الشاعر عندما يزف التهنئة والبشرى لمصر بمجئ هذا الفاتح العظيم ، والقائد المغوار، والقوى الشجاع، الذى تصغر أمامه العظام، ويفتح له كل مستغلق، ويهون عليه كل صعب فهذه مصر الحصينة، التى أحكم الطولونيون القبضة عليها تفتح أبوابها لهذا الفاتح العباسى .

ثم يصور لقاء (الماذرائى) القائد العباسى الفاتح -(بشيبان)- القائد الطولونى، بلقاء موسى وفرعون، وقد نسى الشاعر أنه تشبيه ينطوى على المدح والثناء، فموسى نبى مؤيد من الله تعالى جاء بمعجزة أفحمت كل المعجزات ، نصره الله عز وجل على فرعون الذى ادعى الألوهية وجمع السحرة ليعجز موسى فكانت القاصمة التى جعلت فرعون يهدد ويتوعد السحرة لأنهم عجزوا أمام موسى !

---

(١) الأدب العربى فى مصر ص١٢٤ .

ثم يصور الخليفة (المكتفى) بالإمام الذى أحكم القبضة علي الدولة الطولونية وأزال أثارها وطمس معالمها .

وينعى على آل طولون مخالفتهم السلطان ففيها الخزى والدمار. وهو ماينبئ عن قلب مذبذب ، ونفس متقلبة ، ومما يزيد ذلك وضوحاً عودته لمدح آل طولون عندما مدح (ابن الخليجي) الذى أعاد ملكهم وانتصر على جيوش العباسيين فيقول :

غضبت لمصر ومانالها وشردت بالخوف من غالها
تلافيتها بعد إدبارها وأقبلت تطلب إقبالها
وكادت تؤوه شوقاً إليك وتظهر بالشوق بلبالها
وماشوقها كان من طبعها ولكن ربك أوحى لها
لقد فرج الله كرب النفوس وبلغها فيك أمالها
ولما رأيناك فى مصرنا منحنا الإمارة إجلالها
ومازلت تطلبها همة وتركب بالسيف أهوالها
وتعلم نفسك أن الأمور إما عليها وإما لها
تمنرا لقاك فلما رأوك رأوا للمنية إظلالها
ومروا يطيعون فى كل شئ رأوه المنايا وإنزالها
وكان أبوك خليج العفاة وبحر الثغور التى عالها
به كان الروم فى أمنها تفزع للذنب أطفالها[1]

---

(١) الشعر المصرى من الفتح الإسلامى إلى مطلع العصر الحديث ص١٢٠.

ففى هذه القصيدة نراه يمدح الطولونيين ويثنى عليهم مبتهجاً بما حققوه لمصر من نصر على القائد العباسى . وبعد ذلك كرباً أذهبه الله عن مصر وفرجه عنها بهمة ابن (الخليج) القائد البطل الذى انتصر على القائد العباسى .

فمصر تحن لآل طولون وتتشوق للقائهم ، وتريد البقاء فى أحضانهم فهم أمها الرءوم، والمدافعين عنها والمحافظين على سلامتها وآمنها .

فالقائد الطولونى فرج الله به الكرب، وحقق به الآمال، وبلغ به المنال، وهو وإن كان قد كافح فى سبيل عودة بلاده، وجاهد بالسيف فهكذا الدنيا متقلبة إما لك وإما عليك، وفرحنا بوجودك على الإمارة شديد فكم كنا نتمناه، وأبوك خليج العفاة وبحر الثغور التى عالها، فقد ورثت الشجاعة والقوة .

وبذلك نكون قد عرفنا مدى تذبذب الشاعر وتقلبه ، فمرة ينقم على العهد القديم، ويظهر البهجة والسرور بمقدم الفاتح الجديد، ثم ينقلب فيمدح القائد الطولونى لانتصاره على القائد العباسى وهزيمته وإعادة الأمن والأمان لمصر . !!

وهجا بعض الشعراء (أحمد بن طولون) وعابوا عليه المنشآت التى أقامها ، منهم الشاعر (محمد بن داؤد بن الجراح) أبو عبد الله، أديب من علماء الكتاب، من أهل بغداد ، وهو عم (على بن عيسى) الوزير. كان صديقاً لعبد الله بن المعتز ووزر له يوم خلافته، فلما

قامت الفتنة اختفى ثم ظهر، فأشار (أبو الحسن بن الفرات) بقتله ببغداد سنة ست وتسعين ومائتين عن أربع وخمسين سنة إذ كان مولده عام ثلاث وأربعين ومائتين من الهجرة، له كتب منها «الورقة - ط) فى أخبار الشعراء، والشعر والشعراء، وكتاب الوزراء وكتاب من سمى عمرا من الشعراء فى الجاهلية والإسلام - خ - حققه وهيأة للطبع المستشرق (كرنكو) (١) .

هذا الشاعر هجا (أحمد بن طولون) عندم بنى حصن الجزيرة(٢) واستعد بإنشاء المراكب الحربية دفاعاً عن مصر من وثبة (موسى بن بغا) فقال :

١-لما ثوى ابن بغا بالرقتين ساقية زرقا إلى الكعبين والعقب
٢-بنى الجزيرة حصناً يستجن به بالعسف والضرب والصناع فى تعب
٣- وراقب الجيزة القصوى فخندقها وكاد يصعق عن خوف ومن رعب
٤-له مراكب فوق النيل راكدة فما سوى القار للنظار والخشب
٥-يرى عليها لباس الذل قد بنيت بالشطر ممنوعة من عزة الطلب
٦- فما بناها لغزو الروم محتسبا لكن بناها غداة الروع للهرب(٣)

---

(١) الأعلام حـ٨ ص١٢٠، فوات الوفيات حـ٢ ص٢٠٢، و - الفهرست حـ١ ص١٢٨، وتاريخ بغداد سنة ٤٤٥ و - الوافى بالوفيات حـ٣ ص٦١ .

(٢) حصن الجزيرة - هو حصن جزيرة الروضة الذى كان علي أيام الرومان ثم تخرب فأعاده (أحمد بن طولون) وأنفق على بقائه ثمانين ألف دينار) النجوم الزاهرة حـ٣ ص١٢ .

(٣) الولاه والقضاة ص١٦ وفيه كثير من هذا الهجاء .

وهنا يتهم الشاعر قائد الدولة الطولونية بأنه بنى حصن الجزيرة ليتحصن به ويختبئ فيه، كما أقام المراكب استعداداً للهرب لاللدفاع عن مصر، كما يشير إلى الجهد الذى بذل فى بناء الحصن والمراكب، وأن القائد أجبر الصناع، وأتعبهم فى البناء وهم غيرراضين ساخطين عليه وعلى أعماله .

ولاأظن الأمر كذلك فما الهرب على قائد يملك زمام الأمور فى دولته، بل تدين له بالطاعة - ببعيد، ولايحتاج لاستعداد ولابناء مراكب، أو التحصن يحصن، ليس هدمه أو النيل منه بمستعص على دولة تملك جيشاً جراراً ، وعدة حققت بها انتصارات كثيرة وقد أكثر هذا الشاعر من هجاء بن طولون فلم يأت الأمير عملاً إلا هجاه هذا الشاعر ، حتى إذا أقام الأمير المنشآت النافعة نجد الشاعر قد اتخذ هذه المنشآت وسيلة لهجاء الأمير دون خوف، فمثلاً بنى الأمير (المارستان) سنة تسع وخمسين ومائتين فهجاه الشاعر بقوله :

ألا أيها الأغفال إيها تأملوا وهل يوقظ الأذهان غير التأمل
ألم تعلموا أن ابن طولون نقمة تسير من سفل إليكم ومن عل
ولولا جنايات الذنوب لما علت عليكم يد العلج السخيف المجهل
فياليت مارستانه نيط باستة ومافيه من علج عقل مقلل
فكم ضجة للناس من خلف ستره تضج إلى قلب عن الله مغفل[1]

---

(١) الولاه والقضاة ص١٦٠ - أدبنا العربى فى عصر الولاة صـ٢٠٠ .

وظل هذا الشاعر يهجو أحمد بن طولون حتى مات فلم يقلع عن هجائه بل رماه بأشد أنواع الهجاء، من ذلك قوله :

مضى غير مفقود وما كان عمره سوى نقمة للخلق شنهاء صيلم
لقد زيد فى اليحموم بالرجس لعنة ولم يسق بالمرجوس ترب المقطم
ولم تبكه الأرضون لكن تبسمت سروراً ولولا موته لم تبسم
يبشره إبليس عند قدومه عليه بأحمى بقعة فى جهنم
لقد طهرت الأرض من سوء فعله ومن وجهه ذاك الكريه المورم
فلا سقيت أجداثه صوب مزنة وأنى وفيها شر أولاد آدم(١)

فالشاعر هنا لم يتورع أمام حرمة الموت عن هجاء الأمير، فلم يكفه أن يظهر فرحه لموته بل هجاه بهذه الأبيات وبغيرها مما تقشعر منه النفس، ويأباه الضمير .

وقال فيه أيضاً :

ياراكباً تخدى به حرة لحوبه عنها النجب الخدنا
عرج على اليحموم فانزل به فأسلح على قبر ابن طولونا
وقل له ياشر مستودع أخفى الدمع القلب ملعونا
ياحفرت النار التي أضمرت وظل فيها الرجس مدفونا
لاتجعلى لبسه جثمانه إلا الأفاعى والثعابينا
فعز إبليس بها أولا وعز من بعد الشياطينا

---

(١) السابق ص٢٣٢ .

وقل لهم قد كان يكفيكم ويهنك المعروف والدينا
ثم مضى غير فقيد ولا كان حميداً عمره فينا[١]

ومنهم من مدحه وانتصر له وأشاد بأعماله على رأسهم (قعدان (بن عمرو) فقد مدحه عندما حارب (الموفق) وعزله من ولاية العهد لنقضه بيعة أخيه (المعتمد) وانتصر عليه (أحمد بن طولون) فقال (قعدان) يمدحه :

طال الهدى بابن طولون الأمير كما يزهو به الدين عن دين وإسلام
قاد الجيوش من الفسطاط يقدمها منه على الهول ليث غير محجام
فى جحفل للمنايا فى مقانبه مكامن بين رايات وأعلام[٢]
يسمو به من بنى سام غطارفة بيض وسود أسود من بن حام
لو أن روح بنى كنداج معلقة بالمشترى لم يفته أو ببهرام
حاط الخلافة والدنيا خليفتنا بصارم من سيوف الله صمصام
ياأيها الناس هبوا ناصرين له مع الأمير بدهم الخيل فى اللام
ليست صلاة مصليكم بجائزة ولاالصيام بمقبول لصيام
حتى يرى السيد المأمون ذبكم على الإمام بأطراف القنا الدامى[٣]

---

(١) الولاة والقضاة ص١٨٢ .

(٢) المقانب : جماعات الخيل والفرسان.

(٣) الولاة والقضاة ص٢٤٨ .

وهنا يوسع الشاعر دائرة مدحه للخليفة، فهو رجل متدين، متمسك بإسلامه، غيور عليه، وهو سياسى ماهر، وقائد محنك فقد قاد الجيوش المنتصرة، المتقدمة التى لم تحجم يوماً أمام عدو ، أو تقاعست أمام غادر، وإنما هم ليوث فى الحرب ، لايخافون عدواً ولايرهبون عدداً ولاعدة، فهم أحفاد أبطال، تاريخهم عريق ، ولن يفلت عدوهم مهما كان بعيداً أو قريباً حتى لو تعلق بالكواكب والنجوم، فقائدنا همام شجاع، أحاط الخلافة بسياج متين، ومدد من الله معين .

ثم يدعو الناس للالتفاف حول قائدهم، ونصره على عدوه، فالقتال واجب على الجميع، ولاتنفع صلاة ولاصيام مع خذلان وتقاعس ، فالجهاد باب من أبواب الجنة من تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل والعار كما جاء فى خطبة الإمام على كرم الله وجهه عندما أغار سفيان الغامدى على الأنبار وقتل حسان البكرى واليها من قبل على[1]. ويرى الشاعر فى ابن طولون قوة للإسلام، وحسن قيادة للجيوش، ولو كان عدوه بأقصى مكان ، أوبالمشترى نفسه لنالته ضربته[2] .

وقال (منصف بن خليفة الهذلى) يمدح (أحمد بن طولون) حين انتصاره على الموفق :

---

(١) انظر البيان والتبين حـ٢ ص٢٥ .

(٢) الشعر المصرى من الفتح الإسلامى إلى مطلع العصر الحديث ص١١٠.

ياغرة الدنيا الذى أفعالـــه غرر بهـــا كـل الـورى يتعلـق
أنت الأمير على الشأم وثغرهـا والرقتيـــن وماحـواه المشـــرق
وإليك مصر وبرقة وحجازهـا كـــل إليـــك فـؤاده متشـــوق
هتك الخلافة صاعد وخليلـــه اسحاق لعباً والحسود الأخـــرق
أسيافنا بيض المنون فليتهـــا بنجيـع من خذل الإمام تخلـــق
تمسى وتصبح ضارباً من دونه بهنـد منـــه المتـون تفـــرق
يتلوك سعـــد والمقـدم تيـــتك واللازقى وذو الحفيظة يلحق[1]

فقد جعل الشاعر قائد دولته غرة الدنيا الذى يتعلق به كل الخلق فيحتفون به ويلتفون حوله، ويفخرون بمأثره، وينعمون بجواره ويسعدون بدولته، فالكل متشوق إليه، راغب فى جواره ويصف عدوه الذى وقف فى وجهه وشهر السيف عليه بأنه حسود أخرق، ولن ينال منه شيئاً فالسيوف مشهرة، وهى بيضاء نظيفة لم تدخل معارك من قبل، ولم تلوثها الدماء، وهى مستعدة للنيل ممن يخذلون إمامنا، ويحاربون قائدنا، وسوف نفرق بها بين المحب والكاره، وكل من وراء قائد هذه الدولة أسود أبطال خاضوا المعارك منتصرين، وأخمدوا نيران الحرب مطمئنين، وناموا ملء جفونهم واثقين.

كما مدحه الشاعر (الحسين بن عبد السلام) المشهور بالجمل الأكبر وورد فى كتاب (عنبر الشجر) فى حلى المشهورين بالشعر أن

---

(١) الولاة والقضاة ص٢٤٩.

اسمه الحسين بن عبد السلام وأنه من شعراء الفسطاط فى الدولة الطولونية توفى سنة ثمان وخمسين ومائتين من الهجرة[١] مدح أحمد ابن طولون بقصيدة قال فيها :

له يدكم خلدت من يد سحابة عمت بأنوائها
وهو لدى الهيجاء ليث إذا ماثقلت قام بأعبائها
انظر إلى مصر بسلطانه ترى الهدى فاض بأرجائها[٢]

ونرى مدى إعجاب الشاعر بابن طولون وأعماله وأنها سحابة عمت العالم كله وفاضت عليهم بخيراتها ، وهو فى الشدائد ليث لاتضعفه الأحمال مهما كانت ثقيلة، وأثره واضح وآثاره فى مصر جلية .

ومن الشعراء الأوفياء للدولة الطولونية الشاعر: (القاسم بن يحيى ابن معاوية المريمى) أنه كان مختصاً (بخماوريه) فقد أكثر من مدحه والإشادة به. وتمجيد أيامه، وتسجيل انتصاراته فى حروبه مع أبى العباس بن الموفق، وله أشعار كثيرة تسجل انتصارات (خمارويه) فى حروبه مع الدولة العباسية ، وهو من الشعراء الموهوبين تلوح عليه دلائل القوة والطبع، وقد أثنى عليه القرطبى وقال عنه (إنه من شعراء مصر المشهورين الذين دونت أشعارهم ، وكان محباً لخمارويه معجباً به ، متعلقاً به ، ولذلك انقطع لمدحه)[٣]

---

(١) المغرب فى حلى أهل المغرب .
(٢) الأدب العربى فى مصر ص١٢٩ .
(٣) الولاة والقضاة ص١٨٥، شعراء مصر ص٨٦ .

ولما خرج خمارويه لحرب (إسحاق بن كنداج) سنة ثلاث وسبعين ومائتين فهزم ابن (كنداج) وتبعه (خمارويه) حتى بلغ (سر من رأى) فمدحه (القاسم ابن يحيى المريمى) وأشاد بانتصاراته بعدة قصائد منها قوله :

أتانا أبو الجيش الأمير بيمنه ... فشرد عنا الجور وافتقر العسر

فإن يك أرض الرقتين به اكتست ... ضياء وإشراقاً لقد أظلمت مصر

فسائل به إسحق إذ سار نحوه ... بجيش كعرض النيل يقدمه النصر(١)

وبلغ (خمارويه) سير (محمد بن ديوداد) المعروف بابن أبى الساج فخرج إليه (خمارويه) من مصر فى ذى القعدة سنة أربع وسبعين ومائتين فلقيه بمكان يسمى (ثنية العقاب) من أرض دمشق فانهزم أصحاب خمارويه وثبت خمارويه وحاربهم فكشفهم وهزمهم أقبح هزيمة وفى ذلك يقول القاسم مشيداً بخمارويه وشجاعته وثباته :

فتوح الأمير نجوم تلوح ... فليست تقاس إليها فتوح

تسير لها فى جميع البلاد ... ركائب تغدوا بها وتروح

إذا حاد عن أمره حائد ... أتاح لـه الحتف منه قبيح

نصحنا لشر بنى ديوداد ... بتحذيره لو أطيع النصيح

ولم يكن الغدر مستقبحاً ... وفى الغدر شين وعار قبيح

---

(١) السابق ص١٨٥ .

(٢) الولاة والقضاة ص١٨٥ .

فالشاعر هنا يجعل فتوح (خمارويه) هى النجوم المضيئة لاتقاس بجانبها فتوح، ويستهين بخصمه وأنه كان يجب عليه ألا يخرج لمحاربة هذا القائد الذى عمت شهرته وذاعت انتصاراته على أعدائه وكم نصحناه العودة سالماً ولكنه رفض النصح فكانت الهزيمة المرة .

وأشاد البحترى بهذه الموقعة فقال :

وقد رأيت جيوش النصر منزلة ... على جيوش أبى الجيش بن طولونا
يوم الثنية إذ ثنى بكرته ... فى النقع خمسين ألفاً أو يزيدونا
مظفر لم يزل يلقى بطلعته ... كواكب السعد والطير الميامينا
يمشى قريباً من الأعداء لو وقفوا ... بالصين من بعدها ماستبعد الصينا (١)

وللبحترى قصيدة أخرى عدتها ثمانية عشر بيتاً يردد فيها انتصاراته وفيها يقول :

لقد كان فى يوم «الثنية» منظر ... ومستصع ينبى عن البطشة الكبرى
وعطف أبى الجيش الجواد يكره ... مدافعة عن (دير مران) أو (مقرى)
فكائن له من ضربة بعد طعنة ... وقتلى إلى جنب (الثنية) أو أسرى (٢)

---

(١) الولاة والقضاة ص١٨٥ .
(٢) ديوان البحترى حـ١ ص٥٨ .

شاعر الدولة الطولونية:

(سعيد القاص) هو شاعر مصرى أخلص وده للدولة الطولونية، واعتز بعهد الاستقلال الذى ظفرت به مصر فى ظلها، وقد أطال البكاء عليها، وسجل تاريخها فى قصيدة طويلة، ضمنها ماحققته الدولة الطولونية للشعب من إصلاحات وأعمال، وتتبع فيها تاريخ الأمراء الطولونيين، وذكر تصرف الدهر بهم، وماكان لهم من عز وسلطان .

وشاعر الدولة الطولونية (سعيد القاص) من خلال مواقفه التى ظهرت فى قصيدته يدل على وفاء وطنى، وثبات على المبدأ، فقد ظل وفياً للدولة التى شهد عزها، واستمتع برخائها، وعاش آمناً فى كنفها، فمدح رجالها، وأظهر محاسن قادتها، ووفاء أهلها ، ومحبة شعبها لقائدها، وظل على ذلك ولم يتغير بعد تغيير أحوالها، ولم يصانع أعداءها - كما فعل بعض الشعراء - بعد القضاء عليها، وحاول الدفاع عنها، وتخليد أمجادها على كره من الدولة العباسية التى حاولت جاهدة أن تقضى على كل أثر يدل عليها بالمحو والإزالة فهب (سعيد القاص) فى وجه ذلك الطغيان الحاقد يخلد بشعره ماأرادوا محوه وإزالته من ذكراة الناس والتاريخ.(١)

---

(١) أخباره وأشعاره فى الولاة والقضاة ص٢٥٣ وشعراء مصر من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الفاطمية ص٨٠ والقصيدة مسجلة بكتاب أدبنا العربى فى عصر الولاة ص٩٩٤ وكتاب (أصداء سقوط الدولة الطولونية) .

وجاءت قصيدة (سعيد القاصى) فى ثلاثة وأربعين بيتاً واشتملت على أربعة مقاطع، احتوى المقطع الأول منها على الأبيات التسعة الأولى وفيها يصور الشاعر ماحدث لدولة (أحمد بن طولون)، بعد هذه الحياة المليئة بالترف والبذخ، وكل مظاهر الرفعة والأبهة، حتى هاله ذلك كله وأفزعه، وخيل إليه أن ماجرى لها من إزالة ودمار ليس حقيقة وإنما هو تمويه وخداع، وهو مايشير إلي شدة وقع الأثر عليه فيحاول ألا يصدق مايحدث، فهو فوق الطاقة، لاتكاد تراه عين ولايؤمن به قلب، فإن ماكانت عليه دولة ابن طولون يجعل المرء لايصدق أنها ستزول يوماً ما من الأيام !

فبات الشاعر وقد أغشى عليه، فلم يدر أحى هو أم ميت، فقد أصابه الذهول حتى فقد ضميره، وضاقت عليه الدينا بما رحبت وظن أن لاملجأ منها إلا إلى الله كالأسير الذى يئن مما أصابه، ووقع عليه من شدة القبض والإحكام عليه .

ثم يستفهم الشاعر فى تعجب واستنكار، قائلاً، وهل يستطيع الصبر من أصابته كل هذه الجراح ، وآلمته أشد الكلوم حتى أصبح على جمر وأسى، فحياته كلها ألم وعذاب ألجمت تفكيره، وقيدت حركته، وعذبت روحه، فهو يقاسى آلاماً مريرة لاخلاص منها والأحداث تتتابع وتحيط به من كل جانب، والأيام تغدر به فالكوارث قد تراكمت ، والمصائب ألمت ، والأحزان ملأت القلوب والدموع لاترقأ، فالخطب جلل، والهول مفزع .

ويعلن - وكأنه يعزى نفسه - أن ماأصابهم كان على رغم منهم فلاحيلة لهم فيه، فقد لصقت أنوفهم بالتراب، وأصاب الذل والمهانة كل الناس على حد سواء، فلم تفرق الكوارث والأحداث بين صالح وطالح، ولابين صاحب دين وراغب دنيا، ولابين عزيز وذليل فقد أصيب الجميع بقاصمة الدهر .

فالدولة التى كان يعيش بها هؤلاء الناس كانت زينة الدنيا وبهجتها، ومصدر سرورها وبهائها، ومصابيح أهلها ونورهم وعززهم وفخارهم، أسعدتهم بما أضفته عليهم من الأمن والاستقرار والنعيم والسرور والترف والبذخ، كل ذلك قد ضاع وغاب كما تغيب النجوم اللوامع، وضاع أهلها وضاعت معهم دولتهم وأصبحت أثراً بعد عين، وحديث الناس بعد أن كانوا ينعمون فيها ويسعدون بها ، كل ذلك ذهب واندثر، وأصبح أثراً يذكر وحديثاً يطرى وإن كان لايخفى على كل ذى لب ماكانت عليه هذه الدولة وأهلها، ثم أخذ يعدد أوصاف حاكم هذه الدولة ، فقد كان ، ماجداً ، جميل المحيا، لايغدر ولايفجر، ولايصيب أحدا بمكروه، فضلاً عن إخوانه وأعوانه وماأجمل لياليه وأيامه، فلياليه كلها لجمالها وبهائها وحسنها وإشراقها كانت كليلة القدر، يصيب الناس فيها الخير العميم والثواب الجزيل والسرور .

ثم يقيم الدليل على ذلك كله ، فأثاره واضحه جلية، وأعماله ظاهرة للعيان ولاتخفى على كل ذى بصر، كل ذلك يشهد له بعلو الهمة وكرم المحتد .

يقول الشاعر :

جرى دمعه مابين سحر إلى نحر ... ولم يجر حتى أسلمته يد الصبر
وبات وقيذاً للذى خامر الحشى ... يئن كما أن الأسير من الأسر
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى ... يبيت على جمر ويضحى على جمر
تتابع أحداث تحيفن صبره ... وغدر من الأيام والدهر ذو غدر
أصاب على رغم الأنوف وجدعها ... ذوى الدين والدنيا بقاصمة الدهر
طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها ... بفقد بنى طولون والأنجم الزهر
فبادوا وأضحوا بعد عز ومنعة ... أحاديث لاتخفى على كل ذى حجر
وكان أبو العباس أحمد ماجدا ... جميل المحيا لايبيت على وتر
كأن ليالى الدهر كانت لحسنها ... وإشراقها فى عصره ليلة القدر

أما المقطع الثانى فقد احتوى سبعة أبيات فيها يستدل الشاعر على إتصاف مؤسس هذه الدولة بكل الصفات الحميدة، والأوصاف النبيلة، فهذا هو الشاهد العدل الذى لايكذب ولاينكر، والجلى الواضح - مدينة القطائع التى أنشأها على جبل يشكر فقد أهلت فى أيامه بالعدد الكثير والمبانى الفخمة .

ومما أنشأه (أحمد بن طولون) مسجده الجامع - آية فى الفخار والبهاء، وماتزال أثاره باقية إلى يومنا هذا، وقد أنفق عليه مائة وعشرين ألف دينار وجعل ابنه في بنائه عنبراً لتفوح رائحته على المصلين (١) .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ٣ ص١٣ .

وقد علق فيه القناديل المحكة بسلاسل النحاس المفرغة الحسان الطوال، وفى وسط صحنه قبة مشبكة من جميع نواحيها وهى مذهبة على عشرة عمد رخام، وقد جعل تحت القبة قطعة رخام سعتها أربعة أذرع ، وفى وسطها فوارة تفور بالماء[١] .

كل هذا شاهد صدق على كرم مؤسس هذه الدولة وسخائه وجوده لايبخل ولايضن على مايرفع دولته، ويزيدها بهاء وجمالاً، وينفع الناس، وليس بالمسرف المذموم، وإنما كانت أعماله وسطاً، وفعاله حسنه يجرى فيها بتعقل وروية .

وقد استعمل فى بناء مسجده الأجر والآس والعرعر والمرمر والجص والصخر، وهو مايشير إلى روعة البناء وجماله ، ودقة عمارته والاهتمام به، وعدم البخل فلم يضن عليه ابن طولون بما يظهر جماله، ويوضح زهوه، ويجعله آية فى فن العمارة والبناء، وهذا كله مما يجعله يعمر طويلاً، ويستمر آجالاً طويلة .

وهو على سعته مايجعل الناظر لايحيط به بطرفه ، وهواؤه عليل، ورائحته زكية .

يقول الشاعر مصوراً ذلك كله :

يدل على فضل ابن طولون همة محلقة بين السماكين والفقر
فإن كنت تبغى شاهداً ذا عدالة يخبر عنه بالجلى من الأمر

---

(١) خطط المقريزى حـ٢ ص٢٦٨ .

فبالجبل الغربـى خطـة يشكـر له مسجد يغنى عن المنطق الهذر
يدل ذوى الألبـاب أن بنـاءه وبانية لابالضنين ولاالفمـر
بنـاه بأجـر وآس وعرعـر وبالمرمر المسنون والجص والصخر
بعيد مدى الأقطار سام بنـازه وثيق المبانى من عقوه ومن جدر
فسيح الرحاب يحسر الطرف دونـه رفيق النسيم طيب العرف والنشر

وفى المقطع الثالث الذى ضم ثمانية أبيات .

ينتقل بنا الشاعر إلى عمل آخر من أعمال (أحمد بن طولون) وأثر بارز من آثاره يدلل عليه ، ويشير إليه، وهو مسجده الجامع الذى بناه على هذا الجبل المرتفع الوعر، ومع هذا كان آية فى الفخار والبهاء والعظمة والبناء ، حتى أصبح هداية السائرين، وهادى المضليين، ومنارة فى كل شئ .

والضياء المنبعث من هذا المسجد وقناديله كأنها النجم اليمانى (سهيل) الذى بظهوره تتبدل الأحكام، وينقضى الغيظ ، وتنضج الفاكهة فهو مصدر الخير، ودليل الرخاء، وعلامة السعادة وأماراتها، ويضاف إلى هذا الخير خير آخر أعم، فهو للناس أجمعين، وهو عين ماء يشرب منها جميع الإنس والطير والحيوان، تروى كل ظمآن ماؤها عذب ، تصلح للرواء وللتطهير، ماؤها نقى غير راكد ولامالح. ويزيدها بهجة وإشراقاً، أنها تتصل بالنيل ، وروافده مددها فى الذهاب والعودة، والمد والجزر، معينها أصيل ، وأرضها طيبة تسقى الناس جميعاً، وكل الأحياء وأرض المعافر، وكل القبائل التى حرمت

الماء المعين وماء السماء، ولاتتغذى بماء النيل ولاجداول تمدها ، فخيرها عميم، ونفعها أكيد .

يقول :

وتفور فرعون الذى فوق قلة على شاهق عال على جبل وعر
بنى مسجداً فيها يفوق بناؤه ويهدى به فى الليل إن ضل من يسرى
تخال سنا قنديله وضياءه سهيلاً إذا مالاح فى الليل للسفر
وعين معين الشرب غير ركية وغير أجاج للرواة وللطهر
كأن رفود النيل فى جنباتها تروح وتغدو بين مد إلى جزر
فأراقاها مستنبطاً لمعينها من الأرض من بطن عميق إلى ظهر
تمر على أرض المعافر كلها وشعبان والأحمور والحى من بشر
قبائل لاتوء السحاب يمدها ولاالنيل يرويها ولاجدول يجرى

ثم ينتقل بنا الشاعر فيذكرنا بأثر آخر من آثار الدولة الطولونية، وهو المستشفى الذى بناه (أحمد بن طولون)، وأنفق عليه الكثير ، فاتسعت خدماته، وعمت خيراته، وشملت مساعداته الفنى والفقير، المقعبون يجدون فيها راحتهم، والمرضى يأتون إليها فيجدون العناية والرعاية، وتمتد خدماتها فتشمل الموتى فيجدون فيها أكفانهم وتجهيزاتهم .

يقول :

ولاتنسى ماراستانه واتساعه وتوسعة الأرزاق للحول والشهر
وما فيه من قوامه وكفاتــه ورفقهم بالمعتفين ذوى الفقــر
فللميت المقبور حسن جهــازه وللحى رفق فى علاج وفى جهــر

وهذا الذى بنى عليه حصن الجزيرة، وكان فى بهائه وروعته ودقة عمارته مالايستطيعه بدوى ولاحضرى إلا هاله وأعجبه

وإن جئت رأس الجسر فانظر تأملاً إلى الحصن أو فاعبر إليه على الجسر
ترى أثراً لم يبق من يستطيعــه مــن الناس في بدو البلاد ولاحضر

فالحصن فى نظر الشاعر مظهر الجمال والروعة والإبداع، ودليل جـلال الدولة الطولونيـة وعـزها ، وهو الأثر البـاقى الدائم الذى يبهـر بجماله وروعته كل من رآه ولافرق فى ذلك بين عربى وبدوى !

ثم يأخـذ الشـاعـر فى إسكاب الدمع مـدراراً ، على هذه الآثار الطولونية الزائلة، فيبكى ويبكى ويتحسر ويحسر ويتألم ويؤلم كل من استـمـتع بهذه الآثار ، وشـاهدها ، وشـارك أهلها الفرح والسـرور، ثم يعلن فى ثقـة واطمـئنان بأن هذه الآثار لن تبلى ولن تزول وإن زال أهلها ومات أربابها ، فسوف يتوارثها الأجيال ، ويتناقلها الأحفاد والأسباط ، يفـخرون بهـا ويزهون فـالقبـر على ضيقـه يضم أجسامـاً طاهرة، ورجالاً بواسل ، ملؤا الدنيا مجداً وفخاراً .

وهذا أبو الجيش ابن أحمد بن طولون قام بعد أبيه مواصلاً كفاحه ومجدداً نشاطه، أضاف إلى ماعمره أبوه عمارة أخرى وزاد فيما بناه وجمله وحسنه فكانت مدة حكمه متصلة بمجد أبيه ، ولكن غدر الليالى وسطوها لاآمان له، فالأيام متقلبة والدهر غير مستقر، ينشب نابه بلا هواده .

ولكن أيامه كانت أيام مجد وسؤدد ورثه ابنه فكان قوياً شديداً أسدا بعد أسد .

وحدثت حروب كثيرة عبرت مجرى التاريخ ، جعلتهم يتذكرون مجد الآباء والأجداد ، ولقد أصاب القوم الهلع والفزع لما أحدثته الدولة العباسية من تدمير وإزالة، فالناس جميعاً يبكون ويحزنون لفقد هذه الآثار الطيبة التى نعموا بها كثيراً وخاصة أهل مصر، فقد كانت هى البلد الطيب المثمر الذى ظهرت أمجاده وآثاره، فقد كان عصر الدولة الطولونية أزهى العصور ، وأيامها من أجل الأيام عمها الخير والسرور وشملها الفرح وغمرتها البهجة .

لذا كان الأثر لزوال معالم هذه الدولة قوياً والألم بالغاً يقول الشاعر :

مآثر لاتبلى وإن باد ربها ومجد يؤدى وارثيه إلى الفخر
لقد ضمن القبر المقدر ذرعه أجل إذا ماقيس من قبتى حجر
وقام أبو الجيش ابنه بعد موته كما قام ليث الغاب فى الأسل السمر
كذاك الليالى من أعارته بهجة فيالك من ناب حديد ومن ظفر

وورث هارون ابنه تـاج ماجد كذاك أبو الأشبال ذو الناب والظفر
وقد كان جيش قبله فى محلـه ولكن جيشاً كان مستنقص العمـــر
فقام بأمر الملك هـــارون مدة على نكد من ضيق باع ومـن حصر
ومازال حتى زال والدهر كاشح عقاربه مـــن كـل ناحيـة تسرى
يذكرهم لما مضوا فتتابعـــوا كما أرفض سلك من جمان ومن شذر
فمن يبك شيئاً ضاع بعد أهلـه لفقدهم فليبك حزناً علـى مصـر
ليبك بنى طولون إذ بان عصرهم فبورك من دهر وبورك من عصر[1]

وأثار الحزن بادية في ألفاظ الشاعر وعباراته فاستخدامه للكلمات (دمعه - يد الصبر - يئن - الأسير - أسى - جمر - العبد - غدر - طوى زينة الدنيا - فبادوا وأضحوا) كل ذلك مما يثير الحزن والأسى، ويجرى الدمع مدراراً على زوال هذه الآثار .

وقد حاول بعض الكتاب إظهار الشاعر (سعيد القاص) فى صورة المتذبذب إذ عثر له على قصيدة يمدح فيها (بدر الحمامى) أحد قواد (عيسى النوشرى) وقد تغلب على ابن الخليج وفيها يقول :

حالت معارفهم إلى إنكار وغدا الخميس لهم بيوم بوار

نقول إنها أبيات قليلة جداً لاتقاس بقصيدتين أشاد فيهما بالدولة الطولونيـة ، فـهى تكاد - إن صح ذلك - تكون زلة تغفرها قصائده الطويلة فى مدح آل طولون .

---

(١) الولاة والقضاة ص٢٥٣ والعقيدة بكتاب الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى ص١١٥ ومابعدها .

رثـاء الميـدان:

١ - للشاعر :أحمد بن إسماعيل الحكر في رثاء ميدان أحمد بن طولون قصيدة عدتها تسعة أبيات .

وأحمد بن إسماعيل الحكر من أشهر شعراء الدولة الطولونية ، مصرى المولد، تربى وترعرع فى أحضان نيلها ، شرب من مائه، وتغذى على نباته ، فكان وفياً لقائد الدولة الطولونية وأربابها حافظاً لها مجدها مشيداً بعزها ، فخورا بآثارها وملوكها .

له من المواقف ماينبئ بعقل واع، ونبوغ فكرى، ووطنية حارة وغيرة شديدة على الدولة وآثارها .

وقف من اندثار الدولة الطولونية وذهابها موقفاً كله وفاء وإخلاص فبكاها بشعر صادق العاطفة، حار المشاعر، نبيل الإحساس، فجند نفسه للدفاع عن أمجاد الدولة الطولونية ، والزود عن عزها ، وسجل مفاخرها وأعمالها .

وقد ظهر ألمه وحزنه بشدة عندما هدم الميدان الطولونى الذى شيده قادة الدولة الطولونية بما لهم، وزخرفوه وزينوه، وأقاموا به النافورات والأنوار الباهرة، وكذلك القصور الفخمة التى شيدها الطولونيون، وما أصابها من خراب ودمار وتخريب أفقدها نضرتها وبهاءها ، بعد أن كانت عامرة بالحياة الناعمة المليئة بالقيان والألحان، نرى ذلك واضحاً فى قصيدته التى يرثى فيها الميدان .

فيقول :

وإذا ماأردت أعجوبة الدهر تراها فانظر إلى الميدان
تنظر البث والهموم وأنوا عا توالت به من الأشجان
يعلم العالم المعصر أن الدهـ ـر فيما نراه ذو ألوان
أين مافيه من نعيم ومن عيـ ـش رخى ونضرة وحسان ؟
أين ذاك المسك الذى ذيـ ـف بالعنبر بحثا وعل بالزعفران ؟
أين ذاك الخز المضاعف والوشـ ـى ومااستجلبوا من الكتان ؟
أين تلك القيان تشدوا علـى الفرش بما استحسنوا من الألحان ؟
دور الدهر آل طولون فى هـوة قفر مسكونها غير دان
وأعاض الميدان من بعد أهليه ذئاباً تعوى بتلك المغانى[1]

فالشاعر معجب بالميدان ، مسرورا فخور به حتى أنه اعتبره من عجائب الدنيا ، فهو آية فى الفخار والبناء ، يعجب الناظرين ويبهرهم بجماله وروعته .

وهذا الأثر البارز ، والمعلم الواضح ، الذى بناه (أحمد بن طولون) وأنفق عليه الكثير ، يصبح أثراً بعد عين ، تراه فتتوالى الهموم والأحزان على ما أصابه فبعد أن كان يمتلئ بالقيان تشدو أعذب الألحان أصبح يبث الهموم والأشجان والأحزان .

---

(١) الولاة والقضاة ص٢٦٥ .

ثم يحـاول أن يهـدئ من روع الناس، فـالكل يتـألم لذهابه ، ويتحسر لزواله، ولكنه الدهر الذى لاقرار له ولاثبات ، فالدهر متقلب ذو ألوان .

ويستفهم فى ألم وحسرة عن النعيم الذى ملأ هذا الميدان ورخاء العيش والوجوه النضرة، والقيان الحسان، كل ذلك قد زال وضاع وحرمت العيون من الرؤية الجميلة والمنظر الحسن والعيش النضر .

وهذا المسك الذى تفوح رائحته، وينتشر شذاه، فيملأ الأنوف طيباً وجمالاً وسروراً وإعجاباً ، وفوق ذلك قد ذيف بالعنبر وعل بالزعفران .

وقد اكتسى الميدان بالخز والوشى وماجلبوه من الكتان وبذلك يكون كالعروس المجلوة فى ليلة زفافها جمالاً وبهاء ونضارة . والقيان الحسان تشدو بأحسن الألحان وأجودها.

وبعد أن صور لنا هذا الميدان وأظهر لنا روعته وجماله يذكر تحوله إلى خراب وآثاره إلى دمار وتبدل حاله من شدو القيان إلى عواء الذئاب، ومن العروس المجلوة إلى الجيفة المقبورة، وهكذا تدور الأيام وتتبدل الأحوال ويصبح الميدان أثراً بالياً، ومكاناً قفراً لا أنيس ولا جليس .

٢ - أما الشاعر أحمد بن إسحاق بن بهلول بن حسان بن سفيان أبو جعفر التنوخى، من المخلصين لدولتهم الأوفياء لقادتها أنبارى الأصل ، ولى القضاء بمدينة المنصور عشرين سنة ، مولده سنة

إحدى وثلاثين ومائتين من الهجرة، ومات لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة ثماني عشرة وثلاثمائة من الهجرة عن ثمان وثمانين سنة، كان عظيم القدر، تام المروءة، حسن الفصاحة، حسن المعرفة بمذهب أهل العراق ولكن غلب عليه الأدب .

ولم يزل على قضاء المدينة عشرين سنة من سنة ست وتسعين ومائتين حتى سنة ست عشرة وثلاثمائة من الهجرة وكان بيناً في الحديث ، ثقة مأموناً جيد الضبط لما حدث به مفتياً في علوم شتى .

وكان تام الحفظ للشعر القديم والمحدث والأخبار ، وكان شاعراً كثير الشعر جداً، خطيباً حسن الخطابة والتفوه بالكلام لنا صالح الخط في الترسل والمكاتبة والبلاغة في المخاطبة) [1] .

فقد صور لنا الميدان بأنه عروس فقدت زوجها صباح عرسها ، فتتبدل حالها وأصبحت محلاً للرياح تأخذ منها ماتشاء بعد أن كانت صوناً للنفس وحصناً للأرواح ، ومنظراً تستريح إليه العيون .

فقد كان الميدان ناعم الملمس طيب الرائحة ، يمشي في حلل من الديباج الكل يجول فيه كالغزلان ، فتبدل كل هذا ، فبعد أن سعد منه الأهل والأحباب ، واستمتعوا بما له من مآثر ومافيه من جمال أصبح أثراً بعد عين .

---

(١) معجم الأدباء - م١ ص١٣٨ ومابعدها. وترجمته في بغية الوعاة ص١٢٨ نزهة الأدب ص٣١٨، شذرات الذهب حـ٢ ص٢٧٦ الأعلام حـ١ ص٩٥ .

يقول الشاعر :

وكأن الميدان ثكلى أصبت ... بحبيب صباح ليلة عرس
تتفشى الرياح منه محلاً ... كان للصون فى ستور الدمقس
ويفرش الإضريج والبسط الد ... يباج فى نعمة وفى لين مس
ووجوه من الوجوه حسان ... وخدود مثل اللآلئ ملس
كل كحلاً كالغزال وبجلا ... ء رواج من بين حور ولعس
آل طولون كنتم زينة الأر ... ض فأضحى الجديد أهدام لبس [1]

يبكى الشاعر ويذرف الدمع على زوال هذا الأثر الطولونى الذى كان زينة الدنيا وفخارها، نعم به الأهل والأحباب ، واستمتع به كل غاد ورائح .

فعاطفة الشاعر هنا حزينة مكلومة تخرج كلماته من جروح لاترقأ فى القلوب والأفئدة من هول المصاب، وفجيعة الحدث بزوال هذا الأثر، فنكبة آل طولون وزوال آثارهم أصابت كل المواطنين بالحزن والألم .

٣ - وهذا هو الشاعر محمد بن طشويه أحد شعراء الدولة الطولونية الأوفياء المخلصين الذين أظهروا حبهم وودهم لقائدها ، جاء شعره فى بكاء الأثار الطولونية الزائلة معبراً عن عاطفة صادقة ووفاء

---

(١) الولاة والقضاة ص٢٦٥ .

وإخلاص، وهو فيه حزين أشد الحزن على ميدان بن طولون الذى كان زينة الدنيا فأحاله العباسيون أنقاضاً وخراباً، وهو حريص على إعادة ذكرياته السعيدة وماكان يزخر به الميدان من خدم وحشم، ومابه من رونق وبهاء كان لزواله الحسرة والألم، والفجيعة التى لاتداوى والدمع الذى لايجف ، والكلوم التى لاتبرأ .

من لم ير الهدم للميدان لم يره تبارك الله ماأعلى وأقدره
لو أن عين الذى أنشأنه تبصره والحادثات تعاديه لأكبره
كانت عيون الورى تغشى لهيبته إذا أضاف إليه الملك عسكره
أين الملوك التى كانت تحل به؟ وأين من كان بالإتقان ديره؟
وأين من كان يحميه ويحرسه عن كل ليث يهاب الليث منظره
صاح الزمان بمن فيه ففرقهم وحط ريب البلى فيه فدعثره
وأخلق الدهر فيه حسن جديده مثل الكتاب محا العصران أسطره
دكت مناظره واجتث جوسقه كأنما الخسف فاجاه فدمره
أو هب إعصار نار فى جوانبه فعاد معروفه للعين منكره
كم كان يأوى إليه فى مقاصره أحوى أغن غضيض الطرف أحوره
كما كان فيه لهم من مشرب غدق فعب طرف الردى فيه فكدره
أين ابن طولون بانيه وساكنه؟! أماته الملك الأعلى فأقبره
ماأوضح الأمر لو صحت لنا فكر طوبى لمن خصه رشد فذكره[1]

---

(١) الولاة القضاة ص٢٦٤، والنجوم الزاهرة جـ ٢ ص١٤٩ .

فالشاعر هنا يبكى الميدان بكاء حاراً، ويزرف الدموع عليه مدراراً ويتحسر على زواله ، ويتألم لهدمه، فما أجمله وماأعظمه ، فقد كان ذا مكانه مرتفعة فى قلوب أصحابه والمواطنين جميعاً، فكم سعدوا بجماله وتمتعوا ببهائه ، فلو رآه الذى شيده وبناه، ورسم هيكله وزينه وجمله، والحادثات تعصره، وتزيل معالمه وتدك أركانه ، وتقوض بنيانه، وتطمس جماله لأكبره وأعظمه .

ثم يأخذ فى وصف جماله وروعته، فالعيون تقصر عن رؤيته وتحجب عن الإحاطة به خاصة عندما يلتئ بالعسكر من كل جانب والشاعر يكثر من استخدام الاستفهام الذى يثير الحسرة واللوعة والحزن والألم لضياع هذا الأثر الجميل ، فأين الملوك الذين حلوا به واستمتعوا بالإقامة فيه، وأين الذى أتقن بناءه، وأقام عمارته وشيده وزينه؟ وكأنى به يسرى عن نفسه ، ويخفف من وقع المصاب بتذكره هؤلاء، وماصاروا إليه من فناء، فلا بقاء لشئ جماداً كان أم غيره ولابقاء ولادوام إلا لوجه الله ذى الجلال والإكرام ، فإن كان الميدان يندثر وتزول معالمه ويفنّى بناءه، فقد زال واندثر ملوك حلوا به، وكذلك من شيده وبناه وأين هؤلاء الأقوياء الشجعان الذين كانوا يحرسونه فلاتمتد إليه يد آثمه، ولم يستطع أحد أن يصيبه بسوء فلقد كان حراسة وحماته ليوث لايهابون أحداً ولو كان ليثاً هصورا تهابه الأسود !! كل ذلك أفناه الزمان وبعثرته الأيام وأصابه البلى ، وأصابه الدهر بالقدم فمحا أثره وأنزل معالمه كالكتاب يمحو الليل والنهار والدهر والزمن أسطره فأصبح باهتاً لايقرأ واستعمل الشاعر الكلمات الموحية المعبرة

عن شدة المأساة وهولها فقوله : دكت مناظره - دليل الإزالة التامة ، والقوة والقسوة فى إزالة معالم الميدان، وقوله : واجتث جوسقه ، أى أنه أزيل حتى لم يبق له أثر، ولن تستطيع التعرف على مكانه بعد زواله ، وكذلك كلمة (الخسف) والتى تدل على أنه جعل عاليها سافلها. أو هب عليه إعصار نار فأزال معالمه وغير آثاره حتى أن من رآه لايصدق أنه هو ، ولايمكنه التعرف عليه .

ومن خلال هذه الأبيات نلمح هذا الشعور الحزين والعاطفة المكلومة مما نزل بميدان ابن طولون، ومالحق بنفوس المواطنين .

والقصيدة ومايتضح فيها من شعور مضطرم ولوعة حزينة وحسرة لتعد جمرة متوقدة تكشف عن تأثر عميق، وصدق فى الإحساس.

وجاء بكاء الشاعر فى هذه القصيدة مخالفاً لسابقيه أحمد بن إسحاق) و (أحمد بن إسماعيل الحكر) ، فى رثاء الميدان خاصة، إذ بكاء (الحكر) بكاء للجماعة الكبيرة التى تتجاوب أحاسيسها وأناتها فى أرجاء الدولة الطولونية من قادة وملوك وخدم وحشم .

كما أن عاطفة الشاعر جياشة متوهجة صادقة مؤثرة، وأسلوبه انفعالى مثير زاوج فيه بين الآثار العاطفية والآثار العقلية والإكثار من أسلوب الاستفهام وعبارات التفجع والأسف تصويرا لقسوة الرزء وألم المصيبة .

أين الملوك التى كانت تحل به؟! وأين من كان بالإتقان دبره؟!
وأين من كان يحميه ويحرسه ؟! من كل ليث يهاب الليث منظره
أين ابن طولون بانيه وساكنه؟! أماته الملك الأعلى فأقبره

فوقع هذا الحدث أليم، ليس بالسهل على المرء المخلص الذى نعم بالحياة واستمتع بالمآثر الجملية أن يتخلص من مواقف الأسى .

ومايكون لهؤلاء الشعراء الأوفياء المخلصين لوطنهم أمثال (محمد بن طشويه) أن يتقاعسوا أو يتغافلوا تلك الكوارث، فجاءت أصواتهم عالية باكية متفجعة راثية للحال، جازعة لسوء المآل، فعندما هدم الميدان وتهاوت أركانه، وسقطت سقفه، وتخربت قصوره هال كل ذلك الشاعر، وألهب حماسه، فجعله يظهر فجيعته وحزنه فى هذه الأبيات حتى أنه لم يقدم لها حتى ببيت واحد لكنه بدأ بداية حزينة متألمة، سيطر عليه الحدث وأخذ منه كل مأخذ واستولى على مشاعره ووجدانه فأخذ يقارن بين الماضى والحاضر، الماضى الزاهر بالنعيم والحاضر الملئ بالغيوم، الماضى الممتع والحاضر المفظع، فى شريط من الذكريات والصور الحزينة . فما أصاب الآثار الطولونية ، لم يكن لذنب ارتكبته الدولة الطولونية ولالجريمة فعلتها، ولا لقسوة بالمواطنين ففرحوا بما حل بها، ولكنه تقلب الحدثان، وصروف الزمان.

٤ - أما الشاعر أحمد بن أبى يعقوب بن يوسف بن إبراهيم فقد كان أبوه يوسف بن إبراهيم يكنى أبا الحسن، كان من جلة الكتاب بمصر، له مع (أحمد بن طولون) مواقف كثيرة عندما حبس أباه .

وهو من فضلاء مصر ومعروفيهم، وممن له علوم كثيرة فى الأدب مات سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة، وله من التصانيف سيرة أحمد بن طولون - سيرة أبى الجيش خمارويه - سيرة هارون بن أبى الجيش - أخبار غلمان ابن أبى طالون - كتاب المكافأة - كتاب حسن العقبى - كتاب أخبار الأطباء - كتاب مختصر المنطق)[1] .

(وأحمد بن أبى يعقوب) من الشعراء الأوفياء لدولتهم المحبين لقادتها أخلص لهم، وحفظ معروفهم ، ورد جميل قائدها (أحمد بن طولون) الذى أخرج أباه من السجن ، فرثا آثار الدولة رثاء حاراً وبكى لزوالها ، وتألم لضياع معالمها .

ومن رثائه ماقاله فى الميدان ، فهذا الأثر الطولونى فى نظر (أحمد بن يعقوب) ليس أثراً عادياً وإنما هو مظهر الجلال والجمال، ودليل ملك عظيم، وآية دولة ناعمة راقية يقول :

إن كنت تسأل عن جلالة ملكهم فارتع وعج بمراتع الميدان
وانظر إلى تلك القصور وماحوت واسرح بزهرة ذلك البستانى
وإن اعتبرت ففيه أيضاً عبرة تنبيك كيف تصرف العصران
ياقتل هرون اجتثثت أصولهم وأشبت رأس أميرهم شيبان
لم يغن عنهم بأس قيس إذ غدا فى جحفل لجب ولاغسان
وعدية البطل الكمى وخزرج لم ينصرا بأخيهما عدنان
زفت إلى آل النبوة والهدى وتزلت عن شيعة الشيطان[1]

---

(١) معجم الأدباء م ٣ ص١٥٤ ومابعدها - الأعلام حـ١ ص٢٧٢ .
(٢) الولاة وكتاب القضاة ص٢٥٠ .

أكثر الشعراء فى رثاء الميدان، حتى أنه قيل إن (أبو عمر وعثمان النابلسى) قالا: رأينا كتاباً قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونة فهرس شعراء الميدان الذى كان لأحمد بن طولون . قال :إذا كان اسم الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة فكم يكون شعرهم[1] .

وإن كنا لم نستطع الوقوف على كل هذه الأشعار لأنه ضاع أكثرها كما أوضحنا سابقاً .

والشاعر هنا يريد أن يقول : إن كنت تريد الوقوف على عظمة الدولة الطولونية وجلالها فاذهب إلى ذلك الميدان ، وانظر إلى قصوره المشيدة وماحوت من جواهر ولآلئ، ومن كل زينة الدنيا ، واسرح فيه كيف شئت، وانعم بما فيه من جمال ، فهو خير دليل على ماوصلت إليه الدولة الطولونية من ترف ونعيم .

ثم يوسع دائرة الزمن فيقارن بين الماضى والحاضر، ويدعو إلى الاعتبار بتقلبات الزمن، واختلاف الليل والنهار والغداة والعشى، فالدهر لاقرار له ولابقاء ، فإن كانت دولة (أحمد بن طولون) قد أسست وبنت وزخرفت وشيدت آثاراً زاهية استمتع بها الناس ونعموا فيها وسعدوا بها ، هاهى اليوم قد زالت واندثرت آثارها وضاعت معالمها ، فما أبشع هذه الفعلة وأشنعها فقد أزالت الآثار من جذورها واقتلعتها من أعماقها ، فجيش العباسيين كان قوياً، فقد وقع عليهم ظلمهم وبطشهم، فمزقتهم بعد وحدة وفرقتهم بعد ألفة .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ٣ ص٣ .

٥ - أما الشاعر (إسماعيل بن أبى هاشم) فقد كان من الشعراء الأوفياء لدولتهم وقد سجل الكثير من مفاخر الدولة الطولونية فى شعره ورثاها رثاء حاراً ولم يرد من شعره مايدل على أنه تقرب للأمراء العباسيين بعد القضاء على الدولة الطولونية ، بل إن من شعره مايدل على بغضه لهؤلاء الفاتحين وحسرته الشديدة على ذهاب دولة بنى طولون، وقد قام ضابط طولونى يعرف بابن الخليج بحركة مضادة حاول بها استعادة الدولة الطولونية، وقد تحقق له الانتصار على جيوش العباسيين، وإن لم يستمر، فاستبشر إسماعيل ابن أبى هاشم بحركته، وبارك خطواته، ودعا إلى تأييده ومساندته غيره على مصر وحرصاً على استقلالها (١) .

وللميدان عند (إسماعيل بن أبى هاشم) منزلة عالية فهو يعدل عنده السمع والبصر، ويدعو له بالسقيا فهو عنده المكان المحبب والمنزل المعهود ، فلا يستطيع الذهاب إليه بعد زوال آثاره، كما يترحم على أهله وأحبائه ويسأله عنهم !!

يقول :

يامنزلاً لبنى طولون قد دثرا سقاك صوب الغوادى القطر والمطرا
يامنزلاً صرت أجفوه وأهجره وكان يعدل عندى السمع والبصرا
بالله عندك علم من أحبتنا أم هل سمعت لهم بعدنا خبرا (٢)

---

(١) الولاة والقضاة ص٣٥٣ .

(٢) النجوم الزاهرة ص٣ ص١٤٢ وقد سجل صاحب كتاب (أصداء سقوط الدولة الطولونية فى الشعر العربى) سبع قصائد للشاعر فى هذا الغرض .

وقال أيضاً فى رثاء آثارهم عامة :

قف وقفه بفناء باب الساج والقصر ذى الشرفات والأبراج
وربوع قوم أزعجوا عن دارهم بعد الإقامة أيام إزعاج
كانوا مصابيحاً إذا ظلم الدجى يسرى بها السارون فى الإدلاج
وكأن وجوههم إذا أبصرتها من فضة مصبوغة أو عاج
كانوا الثريا لايرام حما هو فى كل ملحمة وكل هياج
فانظر إلى آثارهم تلقى لهم علماً بكل ثنية وفجاج
وعليهم ماعشت لاأدع البكا مع كل ذى نظر وطرف ساج[1]

الشاعر هنا رقيق عطوف، يظهر وده وحبه لآل طولون، فهم لم يطردوا ،ولم يحاربوا ، وإنما أزعجوا إزعاجاً، فكانوا يهنأون بدولتهم، ويسعدون بما فيها من مآثر، وهم مصابيح الهدى ونور الظلام، وهم الثريا لايرام لهم حمام .

من أجل ذلك فهو يحزن لزوالهم، ويتألم لضياع آثارهم، وسيظل يبكى مابقى فيه نفس يتردد ، ونظر يبصر .

٦ - وبعد هذا الكم من الشعر فى رثاء الميدان الطولونى نجد الصورة تختلف صعوداً وهبوطاً عند هؤلاء الشعراء .

فالميدان فى نظر (أحمد بن إسحاق) عروس تجلت وتزينت وتهيأت لتزف إلى عرسها ، وفجأة فقدت زوجها صباح ليلة عرسها فتثكلت وتبدلت وتغيرت بعد أن عصفت الرياح بصاحبها، ففقدت كل جميل بل أصبح الحسن فى نظرها قبيح والجديد والجميل رث قديم.

أما الميدان عند الشاعر (محمد بن طشويه) فهو حصن منيع تغشاه العيون هيبة وإجلالاً، وتبتعد الحوادث عنه إكباراً وإعظاماً، خلا من الملوك والأمراء، وانفض من حوله الحراس، وهو كتاب محا الزمان جدته، وأزال أثره، واجتث جوسقه حتى لايستطيع أن يتعرف عليه من ألفه .

والشاعر (أحمد بن إسماعيل الحكر) يرى الميدان أعجوبة الزمان توالت عليه ألوان من الأشجان، فى تبدله وتغييره عبرة لمن أراد أن يعتبر .

وهذه الاستفهامات الكثيرة عن النعيم الذى زال والسرور الذى ضاع والوشى والقيان كل ذلك غيره الزمان .

أما (أحمد بن يعقوب) فقد صور لنا الميدان مظهر الملك وجلاله بما فيه من قصور مشيدة، وبساتين مزينة، لم يغن مافيه من قوة ، وما حوى من أبطال ، بل تصرف فيه الزمان فاجتث أصوله وأشاب رأس أميره .

والشاعر (إسماعيل بن أبى هاشم) يرى الميدان ميتاً يحتاج إلى من يترحم عليه ، ويدعو له بالسقيا ، وهو يعدل عنده السمع والبصر .

---

(١) الولاة والقضاة ص٢٥٣ .

فنجد كل شاعر أضاف جديداً إلى الميدان، حتى أصبحت صورته بعد قراءة هذه الأشعار واسعة المساحة ، مشرقة الجوانب عالية الأركان، يستحق البكاء بغزارة والحزن بعمق .

ولتعد اتضح لنا بعد القراءة المتأنية والتمحيص الدقيق لتاريخ الدولة الطولونية أن بعض شعرائها لم يكونوا مخلصين لها ، فقد تذبذب بعضهم وفرح بزوال الدولة الطولونية ، وأظهر سروره للفاتح العباسى وتملق له وأنشد فيه شعراً ،وظهر ذلك جلياً فى أشعارهم أمثال (أحمد بن محمد الحبيشى) وهو من الشعراء البارزين فى الدولة الطولونية ولكنه كان غير ثابت الهوى، غير مخلص لها إخلاص رفاقه من الشعراء فقال فى الترحيب بالعهد الجديد، مظهرا سروره وفرحه بمجئ بنى العباس غير مكترث بما حدث لدولة (أحمد ابن طولون) فقال :

الحمد لله إقراراً بما وهبـــا قد لم بالأمن شعب الحق فانشعبا
الله أصدق هذا الفتح لاكذب فسوء عاقبة المثوى لمن كذبا
فتح به فتح الدنيا محمدها وفرج الظلم والإظلام والكربا (١)

وقال أيضاً مخاطباً (الحسين بن أحمد الماذرائى) الذى قام بهدم الميدان الطولونى عام ٢٩٢ فى أول شهر رمضان المعظم .

---

(١) الأدب العربى فى مصر ص١٢٤، شعراء مصر من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الفاطمية ٨١ .

هنيئاً لمصر قد فتحت رتاجها وقلدت ماقلدتـــه بتحكـــم
وما الفتح إلا فتح رأيك لاالـذى تجمع يوم الجمع من كل معلـم[١]

وقد اتضح موقف الحبيشى المتذبذب فى مواقف كثيرة فقد مدح أحمد بن سليمان) القائد العباسى الذى فتح مصر وقضى على الدولة الطولونيـة ، ثم لم يلبث أن مدح ابن الخليج الذى استعاد هيبة الدولة الطولونية وهزم الجيوش العباسية، ثم لم يتحرج أن عاد مرة أخرى فمدح (الحسين بن على الماذرائى) الذى قضى على حركة ابن الخليج ، وظل هكذا متقلب الهوى يصافح المنتصر، ويمدح القوى .

من أجل هذا نحيناه جانباً، فلم نذكر له شيئاً، أو لم نر له شيئاً أثار شجنه، وآلم ضميره لفقد أثر من الآثار الطولونية أما هؤلاء الذين ظهر ودهم، وبان حبهم لها ، وغيرتهم على آثارها ، ويكائهم على زوالها أمثال (سعيد القاص) و (محمد بن طشويه) و (أحمد بن يعقوب) ،و(أحمد بن إسماعيل الحكر، و(أحمد بن إسحاق) ، و(إسماعيل بن أبى هاشم) وغيرهم الكثير أما الشاعر (أحمد بن يعقوب) [٢] فكان رثاؤه عاماً لبنى طولون وآثارهم فما حل بهم هو نقمة جاءتهم من الشرق على غرة فأبادتهم وأزالت أثارهم وطمست معالم دولتهم .

---

(١) المرجع السابق ص١٢٤ .

(٢) سبق التعريف به ص٤٧ - ٤٨ .

والأمل فى صلاح هذه الأمة ضعيف، فقائدها غير كفء لايريد صلاحاً، تاريخه معروف فقد ساس الدين والدنيا على غير هدى، آراؤه غريبة، وأفكاره ضحلة، وخياله قصير ، أما آل طولون فهم القادة والسادة، أصحاب الرأى الصحيح والحجة الواضحة، والتسامح والرحمة والعطف حتى مع المخالفين .

يقول :

نقمة أرسلت من الشرق تهوى   فأناخت على بنى طولونا
كيف يرجى صلاح هذى البرايا   وابن أبا يسوس دنيا ودينا
بأبى خبة ورأى غريب   كان يمضى شرايع الحكم فينا
مارأينا من آل طولون إلا   مساه فى بطالة مرهونا

---

(١) الولاة والقضاة ص٢٥١ .

المصادر والمراجع

١ - الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى محمود مصطفى - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بمصر ١٩٦٧ م .

٢ - الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الفاطمية د/ عبد الرازق حميده .

٣ - الأدب المصرى الإسلامى من الفتح الإسلامى إلى دخول الفاطميين - د/ محمد كامل حسين - مطبعة الاعتماد.

٤ - أدبنا العربى فى عصر الولاة - د/ محمد كامل حسين - ط دار الفكر العربى .

٥ - أصدار سقوط الدولة الطولونية فى الشعر المصرى - د/ عبد الرحمن هيبة - مطبعة الشناوى بطنطا ١٩٩٠ م .

٦ - بدائع الزهور - محمد بن أحمد بن إياس - ت - محمد مصطفى ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٣ .

٧ - تاريخ الأدب العربى - كارل بروكلمان - دار المعارف .

٨ - تاريخ الأمم والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى - ط دار الفكر - ١٩٧٩ .

٩ - الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية د/ محمد كامل حسين مصر ١٩٥٩ م .

١١ - الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة - على مبارك - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ .

١٢ - خطط المقريزى .
١٣ - ديوان البحترى - ط دار المعارف - ت حسن كامل الصرفى .
١٤ - زهر الآداب وثمر الألباب لأبى إسحاق إبراهيم بن على المصرى القيروانى شرح محمد على البجاوى طبع عيسى الحلبى ١٩٦٩ .
١٥ - الشعر المصرى من الفتح الإسلامى إلى مطلع العصر الحديث - د/ محمد أحمد سلامه - دار الطباعة المحمدية ١٩٨٠م.
١٦ - شعراء مصر من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الفاطمية . محمد مصطفى الماحى - د/ محمد عبد المنعم خفاجى - الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠ .
١٧ - الشوقيات أحمد شوقى - دار الكتاب العربى بدون تاريخ .
١٨ - صبح الأعشى - القلقشندى - المؤسسة المصرية للتأليف ١٩٦٣.
١٩ - معجم الأدباء - لياقوت الحموى ط دار الفكر ١٩٨٠ .
٢٠ - المغرب فى حلى المغرب - ت - زكى محمد حسن وآخرين ط - جامعة فؤاد ١٩٥٣ .
٢١ - النجوم الزاهرة - ابن تغرى بردى - ط وزارة الثقافة .
٢٢ - الموازنة بين الشعراء - زكى مبارك ط٢ الحلبى ١٩٦٣.